

## عبدالرحمن بن الهيثم

### طليعة الأطباء النباتيين في الأندلس

#### فاضل السباعي

أستهل حديثي عن الطبيب القرطبي ، العالم ، عبدالرحمن بن إسحق بن الهيثم ، فأزعم أنه قد جار عليه اثنان من علماء بلده الأندلس ، وذلك حين أرّخا للأطباء والعلماء في زمنه ، وأهملا الترجمة له ! ... حتى إذا لاح اهتمام ما به ، في الأعصر التالية ، ناله ، في زماننا نحن ، إهمالٌ جديد على يدي اثنين من مؤرخي الأعلام ، في هذا القرن العشرين !

فأما المؤرخان الأندلسيان ، فأولهما بلديه وعصريه سليمان بن جُلجل القرطبي في كتابه « طبقات الأطباء والحكماء » ، والآخر هو المؤرخ اللاحق لجيله القاضي صاعد الطليطلي في كتابه « طبقات الأمم » .

وأما مؤرخا القرن العشرين ، فهما الشاميان : خير الدين الزركلي صاحب موسوعة « الأعلام » ، وعمر رضا كحّالة صاحب « معجم المؤلفين » ، طيب الله ثراهما وهما اليوم في جنان النعيم (١) .

---

١ - توخياً للدقة أبين أن أول المؤرخين الأندلسيين ، ابن جُلجل ، قد أتى على ذكر طبيينا الرائد ابن الهيثم ، تعداداً بين « نفر من الباحثين عن أسماء عقاقير ديسقوريدس » ، أولئك الذين عملوا في صحبة الطبيب الراهب نقولا القادم من القسطنطينية ، فأتيح لهم أن يُصححوا أسماء هذه العقاقير بالعربية ، وأن يقفوا على ماهيتها ( على نحو ما تُبين أدناه ) ... فكانت فائدة جليلة نعم الطب بها ، طوال القرون الخمسة التالية من عمر الإسلام في الأندلس .

## أولاً : الرجل والعصر

### ١ - العصر :

إذا كان إقبال الأندلسيين على الطب ، تعلماً وممارسة وتفوقاً ، قد أخذ يعطي ثماره بدءاً من القرن الرابع الهجري ( العاشر الميلادي ) ، فإن هذا الازدهار قد اقترن بعنايتهم الفائقة بالطب النباتي على وجه الخصوص .

وآية ذلك أن أموي الأندلس ، بعد أن استتب لهم الحكم في الداخل ، في النصف الأول من القرن الرابع خاصة ، وخضعت لهم رقاب الأعداء وراء الحدود ، التفتوا إلى العلوم والآداب ، فاستجلبوا ، من مشرق العالم الإسلامي ، مئات الكتب والمصنفات . ولكن بدا أن علاقة ما قد قامت ، في عهد الخليفة عبدالرحمن الناصر ( حكمه : ٣٠٠ - ٣٥٠ هـ ) ، بينه وبين القسطنطينية ، حين أوفد إليها سفارة في سنة ٣٣٤ هـ ( ٩٤٦ م ) ، فرد إمبراطورها بسفارة مثلها إلى قرطبة سنة ٣٣٧ ( ٩٤٩ ) حملها كتابين هما : تاريخ « هروشيوش » ( باللاتينية ) ، و « حشائش » ديستوريدس ( بالإغريقية ) .

وقد كان ميسوراً للأندلسيين أن يُعرّبوا الكتاب الأول ، فإن بينهم كثيراً ممن يعرفون اللاتينية ويتقنونها . إلا أن نقلهم الكتاب الآخر عن الإغريقية كان متعذراً . ولقد فطن المهدي قسطنطين السابع<sup>(١)</sup> - وكان عالماً معنياً بالتاريخ - إلى هذه المسألة ، فقال في خطابه إلى عبدالرحمن الناصر ( كما روى ابن جلدج ) :

---

١ - وليس أرمانيوس ( رومانوس ) ، كما ورد في المصادر العربية ؛ ذلك أن القائد العسكري « ليكابينوس رومانوس » ، المتسلط على الإمبراطور الشرعي قسطنطين ، كان قد عُزل سنة ٩٤٤ م ( ٣٣٢ هـ ) ، قبل أن يقضي في منفاه في ١٥ حزيران ٩٤٨ م ( ٤ ذي الحجة ٣٣٦ ) . انظر : الدكتور السيد الباز العربي : « الدولة البيزنطية » ، دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٢ ، ص ٤٠٩ .

« إن كتاب ديسقوريدس لا تُجتنى فائدته إلا برجل يُحسن العبارة باللسان اليوناني ويعرف أشخاص تلك الأدوية . فإن كان في بلدك من يُحسن ذلك فُرت ، أيها الملك بفائدة الكتاب ... » !

ويتابع ابن جلجل روايته :

« فلما جاوب الناصرُ أرمانبوس الملك ، سأله أن يبعث إليه برجل يتكلم بالإغريقي واللطيني ... »<sup>(١)</sup> .

ثم كان على علماء قرطبة أن ينتظروا سنوات ثلاثاً إلى يوم يقدم إليهم موفدٌ من القسطنطينية ، هو الطبيب الراهب نقولا ، الذي كان يتكلم الإغريقية ( اليونانية القديمة ) لغة ديسقوريدس ، فضلاً عن إتقانه اللاتينية الشائعة بين نصارى الأندلس وغير قليل من مثقفي مسلميها .

وبوصول الطبيب القسطنطيني قام « نفرٌ » من الأطباء والعلماء في قرطبة<sup>(٢)</sup> ، ممن كان « لهم بحثٌ وتفتيشٌ وحرصٌ على استخراج ما جهل من أسماء عقاقير كتاب ديسقوريدس إلى العربية » ، وهم : حسداي بن شبروط الإسرائيلي ( وكان مُقرباً من الناصر ) ، ومحمد المعروف بالشجار ، والبسباسي ، وأبو عثمان الجزائر ، ومحمد بن سعيد الطبيب ، وعبدالرحمن بن إسحق بن الهيثم ، وأبو عبدالله الصقلي .. قام هؤلاء بمهمة مراجعة الكتاب، والوقوف على ماهية العقاقير المذكورة فيه ، وتسميتها بالعربية .

---

١ - ابن أبي أصيبعة : « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ( نقلاً عن ابن جلجل ) ، تحقيق الدكتور نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ببيروت ( دون تاريخ ) ، ص ٤٩٤ .

وللحقيقة ، لقد كان تعريب كتاب الحشائش قد تم - قبل ذلك التاريخ بمئة سنة - في عاصمة العباسيين أيام المتوكل ( المتوفى ٢٤٧ هـ ) : قام بذلك اصطفن بن بسيل وأجاره أستاذه الطبيب حنين بن إسحق . ولكن النص العربي جاء قاصراً ، بسبب إخفاق المترجم في أن يجد دائماً المقابل العربي لأسماء العقاقير والنباتات الإغريقية !

٢ - النضر : ما دون العشرة من الرجال ؛ وذلك ما يمكن أن نطلق عليه ، هنا ، بلغة عصرنا : اللجنة ، أو فريق العمل !

إن هذه المعلومات المتعلقة بوصول كتاب ديسقوريدس إلى قرطبة ، ثم استدعاء مَنْ لُغته الإغريقية من القسطنطينية ، وما أسفر عن ذلك من مراجعة الكتاب وفهم محتواه ... كان يُتوقع لهذه المعلومات المهمة ، أن تضيع في زحمة التاريخ ، لولا أن قيدها لنا معاصرُ تلك الحقبة ، سليمان بن حسان بن جلجل<sup>(١)</sup> .

وعلى ذلك فإن ابن جلجل ، صاحب « طبقات الأطباء والحكماء » - الكتاب الذي استوعب تراجم عديدة لأطباء أندلسيين وغيرهم - كان هو وطبيبا ابن الهيثم متعاصرين ، وقد أظلتهما - بعد عصر عبدالرحمن الناصر - أيامُ ولده الحكم المستنصر (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ) ، وبعد هذا عهدُ ولده هشام المؤيد بالله !

فكيف يسوغ أن يُغفل ابنُ جلجل - وهو المؤرخُ العارف والطبيب العالم - التعريف بمعاصره الطبيب الرائد في علم العقاقير والنباتات الطبية عبدالرحمن بن الهيثم ؛ على حين يورد في كتابه هذا ، أخباراً عن أطباء لم يُعرفوا بالريادة ، ولا وُصفوا بالتفوق ، ومنهم من أضربت المصادر التاريخية عن ذكره ، بعد ابن جلجل ، فلم تتحدث عنه البتة ؟!

## ٢ - ملامح من شخصيته :

ومع أن المصادر التاريخية التالية على عصر ابن جلجل ، لم تكن بأكرم منه بالمعلومات المتصلة بطبيبا عبدالرحمن بن إسحق بن الهيثم ؛ إلا أننا نستطيع - بالضعيل الذي قدمته لنا المصادر - أن نرسم خطوطاً لشخصيته ، مستكملين ملامح صورته من خيال مستمد من الواقع ، في محاولة لتقريبها من الذهن والإحساس !

---

١ - يُعد ابن جلجل ( المولود بقرطبة سنة ٣٣٢ هـ ) من أبرز أطباء الأندلس . له مؤلفات في المفردات النباتية . على أن شهرته الواسعة ، اليوم ، تقوم على كتابه التاريخي المهم : « طبقات الأطباء والحكماء » !

وقد أعددت بحثاً مستفيضاً بعنوان : « الطبيب القرطبي ابن جلجل وعصر ازدهار الطب في الأندلس » ، قدمته في المؤتمر الثالث عشر لتاريخ العلوم عند العرب ( طرطوس ، أيار ١٩٨٩ ) . وفي شأن التحقيق في تاريخ وفاته ، انظر الحاشية ٣ ص ٣٣ .

نقدّر ، أولاً ، أن أبا إسحق كان - حين التقى بالراهب نقولا سنة ٣٤٠ هـ - في نحو الأربعين من عمره ، سن النضج العلمي والاكتمال العقلي ، بدليل اختياره عضواً في « اللجنة » العلمية المتعاونة مع الطبيب نقولا ؛ فهو إذن ، من مواليد أوائل المئة الرابعة للهجرة (٩١٤ م وما حولها) ، ولعله ولد قبل ذلك !

ونرى أنه كان يعرف اللاتينية ، اللغة المشتركة مع الطبيب نقولا ، وإلا استحال إسهامه في مراجعة كتاب ديسقوريدس !

وهذا يقودنا إلى أن نفترض - بحذر - أنه من طائفة « المولّدين » ، المتنامية في المجتمع الأندلسي ، والتي وسع النظام الإسلامي لها فرص العمل والنجاح وارتقاء المناصب<sup>(١)</sup> .

ولأنه أدرك الخليفة هشام المؤيد بالله ( هذا الذي ابتدأت أيامه بوفاة أبيه الحكم المستنصر سنة ٣٦٦ هـ ) ، بدليل أنه صنف كتاباً لحاجبه « القائد أبي عامر محمد بن أبي عامر »<sup>(٢)</sup> ، فإن ابن الهيثم يكون ، بذلك ، قد عمّر يقيناً ما يزيد على ستين عاماً ! وإذا كنا قد افتقدنا معرفة شيوخه وأساتذته ، الذين أخذ عنهم المعارف والعلوم في اللغة والفقه والطب ، فإن لنا أن نتصور أنه كان تلميذاً نجيباً ، ثم مصاحباً لمشاهير الأطباء الذين ظهروا أوائل القرن الرابع الهجري ، ونبغوا ، وتهيأ لبعضهم أن يخدم بالطب عبدالرحمن الناصر ... من هؤلاء :

- ١ - أصبغ بن يحيى ، الذي ألف للناصر « حب الأنيسون » .
- ٢ - الجراح يحيى بن إسحق ، وقد استوزره الناصر .
- ٣ - سليمان بن باج ، الذي كان ضنيناً بنسخ أدويته على الأطباء<sup>(٣)</sup> .

---

١ - المولّدون : هم ذراري « المسالمة » ، هؤلاء الذي ظلوا يدخلون الإسلام من نصارى الأندلس . ويؤيد افتراضنا هذا في ابن الهيثم ، أن المصادر لم تقرن باسمه إلا اسمي الأب والجد ، فلم تنسبه إلى أصل عربي !

٢ - ابن أبي أصيبعة : ٤٩٣ . وسيرد تفصيل ذلك أدناه .

٣ - نسخ الأدوية : هي « الوصفات الطبية » ، بلغة اليوم !

- ٤ - ابن أم البنين ، مُنادم الناصر .
- ٥ - عمران بن أبي عمر ، وقد أُلّف للناصر أيضاً « حب الأيسون » وكان يحضر مجالسه .
- ٦ - سعيد بن عبد ربه ، الطبيب الأديب الشاعر ، الذي لم يخدم سلطاناً ! « له ، في الطب ، رجزٌ أحسنَ فيه » (١) .
- ٧ - عمر بن بريق ، الذي كانت له إلى القيروان ( في تونس ) رحلة ، لزم فيها الطبيب ابن الجزائر ، ثم عاد إلى الأندلس وفي جعبته كتابٌ للطبيب القيرواني ، أو كتابان (٢) .
- ٨ - الطبيب نقولا الراهب ، القادم من القسطنطينية (٣) .  
ونحسب ، أيضاً ، أن من أصحاب ابن الهيثم ، من قد تأخر سنّاً عن هؤلاء ، ومنهم من خدم بالطب الناصر ، ثم ابنه الحكم المستنصر ... ومنهم :
- ٩ - أبو الوليد الكتّاني ، الذي كان لطيفاً في علاج المرضى !
- ١٠ - محمد بن تلميح التميمي ، له في الطب « كتاب الأشكال » .
- ١١ - أبو موسى هارون الأشونني ، الذي كان ممارساً للجراحة .
- ١٢ - أبو عبد الملك الثقفي ، وقد تولّى خزانة السلاح على عهد الناصر ، ثم المستنصر .
- ١٣ - أحمد بن حفصون . خدم بالطب المستنصر .
- ١٤ و ١٥ - الأخوان أحمد وعمر ابنا يونس ، اللذان دخلا بغداد قبل أن ينصرفا إلى بلدهما الأندلس ... ثم التحقا بخدمة المستنصر .

- 
- ١ - وهو ابن أخي أبي عمرو بن عبد ربه ، صاحب كتاب « العقد الفريد » .
  - ٢ - إن مصدر معرفتنا عن هؤلاء الأطباء السبعة ، هو ابن جلجل في كتابه « طبقات الأطباء والحكماء » ، تحقيق فؤاد سيد ، مؤسسة الرسالة بيروت ، طبعة مصورة ١٩٨٥ ، ص ص ٩٨ - ١٠٨ .  
ويتضح بذلك ، مدى الحيف الذي أوقعه هذا الطبيب المؤرخ بمعاصره العالم ابن الهيثم ، حين ترجم لهؤلاء ولغيرهم ، وأضرب عن ذكره في كتابه التاريخي هذا !
  - ٣ - والذي ظل في الأندلس إلى أن وافته المنية - حسب قول ابن جلجل - في صدر دولة الحكم المستنصر ( التي ابتدأت في ٣٥٠ هـ ) ، ابن أبي أصيبعة : ٤٩٤ .

١٦ - محمد بن عبدون الجبلي . دخل البصرة ، ثم نُبِّل بالطب في الفسطاط (بمصر) .  
خدم المستنصر ، ثم ابنه هشام المؤيد بالله (١) .

١٧ - حامد بن سمحون ، الطبيب النباتي .

١٨ - الجراح أبو القاسم ، خلف بن عباس الزهراوي (٢) ، الذي أثبتت الأيسام أنه  
أعظم الجراحين في التاريخ !

١٩ - وذلك فضلاً عن سليمان بن حسّان بن جلجل ، الطبيب المؤرخ ، موضع  
الجدل في بحثنا ، صاحب « طبقات الأطباء والحكماء » .

### ٣ - المصادر التي أشارت إليه :

أقول : المصادر التي « أشارت إليه » ، ولم أقل : التي « تحدثت عنه » ... ذلك  
أن ما ورد في المصادر التاريخية عن ابن الهيثم ، لم يتعد « الإشارات » الصغيرة العابرة !  
١ - وأول من أشار إليه هو معاصره ابن جلجل ( المتوفى بعد ٣٩٩ هـ ) (٣) !!

١ - وهؤلاء الثمانية ممن ترجم لهم ابن جلجل : ١٠٨ - ١١٥ .

٢ - ابن أبي أصيبعة : ٥٠٠ و ٥٠١ .

والطبيبان ، ابن سمحون والزهراوي ، هما من أغفل ابن جلجل الإشارة إليهما ؛ ومسرد ذلك  
- بتقديرنا - إلى أنهما - وهما في مثل سنه أو أصغر قليلاً - لما يكونا قد نبغا في الطب بعد ، في السنة  
التي صنف فيها « طبقاته ... » ( سنة ٣٧٧ هـ ) ، وكان له من العمر ستة وأربعون !  
وسوف تكون لنا وقفة عند كل منهما في بحثٍ مستقل !

٣ - ذهب محقق « طبقات .. » ابن جلجل ، في دراسته المستفيضة التي قدم بها تحقيقه العلمي الجيد ،  
إلى أن وفاة ابن جلجل كانت بعد سنة ٣٨٤ هـ ، لأسباب قدرها ...

وأذهب - أنا كاتب السطور - إلى أن وفاته تأخرت عن ذلك إلى ما بعد ٣٩٩ هـ ؛ وذلك استناداً  
إلى عبارة وردت في « طبقات الأمم » للقاضي صاعد الظليطي ( ت ٤٦٢ هـ ) ، تقول إنه كانت  
هناك ، « حتى آخر الدولة العامرية ، جماعة لهم نفوذ في صناعة الطب ... منهم : سليمان بن  
حسان المعروف بابن جلجل » ، « طبقات الأمم » ، تحقيق حياة بوعلوان ، دار الطليعة ببيروت  
١٩٨٥ ، ص ١٩٢ .

ومعروف أن « الدولة العامرية » ، التي أقامها محمد بن أبي عامر ( الحاجب المنصور ) ، لم تنته  
بوفاته ( ٣٩٢ هـ ) ، بل بمصرع ثاني ولديه - الذي تسلم السلطة بعد أخيه - عبد الرحمن ، سنة  
٣٩٩ هـ !

ذلك أن معاصره الذي أغفل الترجمة له في « طبقاته » ، قد أتى على ذكره تعداداً بين أولئك « النفر » ( اللجنة ، فريق العمل ) من الباحثين عن أسماء العقاقير التي تضمنها كتاب ديسقوريدس ، وذلك في كتابه - كتاب ابن جلجل - الآخر ، الضائع معظمه : « تفسير أسماء الأدوية من كتاب ديسقوريدس » .

وكانت العبارة :

و « من الأطباء الباحثين عن تصحيح أسماء عقاقير الكتاب : ... عبدالرحمن بن إسحق بن الهيثم ... » (١) .

وإنها لأول « إشارة » تُسجل لابن الهيثم ريادته في الطب النباتي !

٢ - وفي القرن التالي ( الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي ) تأخذ « الحمية » أديب الأندلس وفقهها الكبير ، أبا محمد علي بن أحمد بن حزم ( ت ٤٥٦ هـ ) ، فيكتب - إثر محاولة بعضهم في العودة المغربية أن يُضائلوا من شأن الأندلس علماء وأدباء - رسالته « في فضل الأندلس وذكر رجالها » ... ولم يغرب عن بال ابن حزم بلديته العالم النابه ابن الهيثم ، وقد مضت على وفاته عقود من السنين ، فيقول مفاخرأ به ، في هذه العبارة الوجيهة :

« وكتب ابن الهيثم ، في الخواص والسموم والعقاقير ، من أجل الكتب وأنفعها » (٢) !

١ - نقل ذلك ، عن ابن جلجل الأندلسي ، مؤرخ الأطباء الدمشقي ابن أبي أصيبعة ، في كتابه عيون الأنباء ... : ٤٩٤ .

٢ - « رسائل ابن حزم » ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت ، ٣ : ١٨٥ ( سنة ١٩٨١ ) .

وقد نقل العبارة ، وبالأحرى نص الرسالة كاملاً ، المقرئ ( ت ١٠٤١ هـ ) في كتابه « نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب » ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ببيروت ١٩٦٨ ، ٣ : ١٧٥ .

٣ - وبعد عقود من السنين أخرى ، ينقل هذه العبارة عن ابن حزم ، تلميذه الحميدي (ت ٤٨٨ هـ) ، في كتابه « جذوة المقتبس » بعد أن يُقدم لها بأخرى ... يقول :  
« ابن الهيثم : من المشهورين بعلم الطب والتقدم فيه . وله ( كتب ) في الخواص والسموم والعقاقير ، من أجل الكتب وأنفعها . ذكره أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم » (١) .

٤ - وبعد مئتين من السنين أخرى ، يُترجم له ، بإيجاز بالغ ، مؤرخ الأطباء ابن أبي أصيبعة الدمشقي (ت ٦٦٨ هـ) ، فيقول :

« عبدالرحمن بن إسحق بن الهيثم : من أعيان أطباء الأندلس وفضلائها ، وكان من أهل قرطبة . وله من الكتب : كتاب الكمال والتمام في الأدوية المُسهلة والمُقَيِّنة ؛ كتاب الاقتصار والإيجاد في خطأ ابن الجزار في الاعتماد ؛ كتاب الاكتفاء بالدواء من خواص الأشياء ، صنّفه للحاجب القائد أبي عامر محمد بن أبي عامر ؛ كتاب السمائم » (٢) .

١ - « جذوة المقتبس » ، الدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٦٦ : ٤٠٧ ؛ وقد وردت : وله (كتاب) ... فصحتها !

٢ - ابن أبي أصيبعة : ٤٩٣ .

وفي ترجمة بلدنا الدمشقي هذه ، إضافات صغيرة ، لم يسبق أن وردت في المصادر الأندلسية المعروفة . ونرجح أنه استقاها من مصدر غير ما ذكرنا ، هو ذلك الكتاب الذي ألفه أندلسي وفد من مدينة « جيان » الأندلسية إلى مصر في عصر السلطان صلاح الدين الأيوبي ( القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ) ، هو أبو يحيى ، اليسع بن عيسى بن حزم الغافقي ، الذي استوطن - حسب رواية ابن الأبار - الإسكندرية أولاً ، قبل أن يتوجه إلى القاهرة ، فيشتمل عليه الملك صلاح الدين ... له تاريخ سماه « المغرب في محاسن المغرب » . توفي بمصر سنة ٥٧٥ هـ . انظر : ابن الأبار : « المعجم في أصحاب ... الصنفي » ، دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٧ : ٣٣٤ ؛ و « التكملة لكتاب الصلة » ، طبعة مجريط ١٨٨٧ : ٧٤٤ .

نرى ذلك ، لأن كتاب اليسع الأندلسي ، كان في جملة المصادر التي اعتمدها المؤرخ الدمشقي لدى تصنيفه موسوعته في تاريخ الطب . ومن المرات ، التي ذكر فيها مصدره هذا ، كان في ترجمته الموجزة للطبيب حامد بن سمحون ( الذي أهملته أيضاً المصادر الأندلسية المعاصرة له ؛ وإن لنا دراسة عن شخصه وعلمه ) ! .

٥ - ولعل آخر من ذكره من القدماء ، مستشهداً بعلمه ، هو بلديّ الأندلسي عبدالله بن البيطار ( ت ٦٤٦ هـ ) . ذلك أنه - في موسوعته النباتية : « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » - نقل عن ابن الهيثم ، الذي سبقه بنحو ثلاثمئة سنة ، عدداً من مفرداته الطبية، أحصيتها فوجدتها ثمانياً (أعرض لها بالتفصيل أدناه)!. وصممت عن ابن الهيثم ، صمتاً كلياً ، كتبُ تراجم ، أندلسية مهمة ، هي :

- طبقات الأمم « للقاضي صاعد الطليطلي ( ت ٤٦٢ هـ ) .

- كتاب « الصلة » لابن بشكّوال ( ت ٥٧٨ هـ ) (١) .

- « التكملة لكتاب الصلة » لابن الأبار ( ت ٦٥٩ هـ ) .

- وأما موسوعة التراجم الأندلسية الكبرى : « الذيل والتكملة ... » ، ذات الأسفار الثمانية ، لابن عبد الملك الأنصاري ( ت ٧٠٣ هـ ) . فقد كان الأمل أن نجد ترجمة لطيبنا في سفرها الرابع ... إلا أن مخطوطة هذا السفر - الوحيدة الباقية حتى أيامنا ، والتي تم تحقيقها مؤخراً - كانت « قطعة » من السفر لا كله ، فغاب موضع الترجمة في ما ضاع من أجزائه ... وهذا من سوء الطالع أيضاً! (٢)

وفي العصر الحديث ترجم له المستعرب الفرنسي الطبيب لوسيان لوكليرك Lucien Leclerc ( ١٨١٦ - ١٨٩٣ ) ، في كتابه « تاريخ الطب العربي » ، حيث رجع إلى حديث ابن جلجل عنه ، فقال : إنه « كان في عداد الأطباء المكلفين بمساعدة الراهب نقولا في تعيين النباتات المذكورة في كتاب ديسقوريدس » ، وأدرج أسماء كتبه نقلاً عن ابن أبي أصيبعة ، وأشار إلى نقول ابن البيطار منه في كتابه « جامع المفردات ... » (٣) .

١ - قسمان ، في مجلدين ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٦٦ .

٢ - « الذيل والتكملة لكتايب الموصول والصلة » ، السفر الرابع تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ببيروت ( ١٩٦٤ ) ، تاريخ المقدمة .

٣ - Lucien LECLERC: Histoire de la médecine Arabe (2T.), Paris 1876, Réédité Rabat - ١٩٨٠، 1:430. (الرباط)

وأما « أعلام » الزركلي و « معجم المؤلفين » لكحالة ، فلعل إغفال المؤلفين الترجمة له مرده إلى أنه كان من شرط موسوعتيهما تحديد واحد على الأقل من تاريخي الولادة والوفاة للمترجم لهم ، ولما كان التاريخان معاً مجهولين في شأن ابن الهيثم ، فضلاً عن ضالة المعلومات عنه ، فقد أضربا عن ذكره !

#### ٤ - مؤلفاته :

في ما أشار إليه ابن حزم الأندلسي ، وما عدده ابن أبي أصيبعة الدمشقي ، من مؤلفات أبي إسحق بن الهيثم ، نجد أنها أربعة ، هي :

أ - كتاب « الكمال والتمام في الأدوية المسهلة والمقيئة » ، انفرد بذكره المؤرخ الدمشقي (١) .

ب - كتاب « السموم » عند ابن حزم ، و « السمائم » عند ابن أبي أصيبعة (٢) .

ج - كتاب « الاكتفاء بالدواء من خواص الأشياء » ، سماه بذلك ابن أبي أصيبعة ، في حين أشار إليه ابن حزم على أنه كتاب في « الخواص » (٣) .

---

١ - ابن أبي أصيبعة : ٤٩٣ .

٢ - « رسائل ابن حزم ... » ٣ : ١٨٥ ؛ وابن أبي أصيبعة : ٤٩٣ .

٣ - ابن أبي أصيبعة : ٤٩٣ ؛ « رسائل ابن حزم ... » ٣ : ١٨٥ .

وخواص العقاقير هي قواها التي تؤثر في الأجسام . وقد أسرف الأطباء القدامى في بيان مثل هذه الخواص ، في كتب أفردها لذلك ، تدور حول الفوائد التي تُجنى من بعض العقاقير ، حتى دخلوا حدود الخرافة !

ويضيف ابن أبي أصيبعة أن ابن الهيثم صنّف كتابه هذا « للحاجب القائد أبي عامر محمد بن أبي عامر » .

وابن أبي عامر هذا هو من عُرف في التاريخ بـ « الحاجب المنصور » ، الذي تسلط على ولد الحكم المستنصر : هشام المؤيد بالله ، يوم آلت إليه الإمارة بعد وفاة أبيه في سنة ٣٦٦ هـ وهو غلام .

د - كتاب « الاقتصار والإيجاد في خطأ ابن الجزار في الاعتماد » ، انفراد  
بذكره ابن أبي أصيبعة (١) .

ومن المؤسف أننا نفتقد اليوم هذه الكتب مطبوعة ؛ ونجهل ما إذا كانت  
مخطوطاتها موجودة في المكتبات العامة ، العربية والعالمية !

١ - ابن أبي أصيبعة : ٤٩٣ .

ويرى الباحث في تاريخ الطب العربي ، صديقي الدكتور مختار هاشم عضو مجمع اللغة العربية  
بدمشق ، أنه ربما كان في عنوان هذا الكتاب تحريف في الكلمتين الأوليين منه ، وتبديل في  
موضوعهما ، فلعل الصواب : الإيجاز والاقتصاد في خطأ ابن الجزار في الاعتماد .

والطبيب القيرواني ابن الجزار (٢٧٨ - ٣٦٠ هـ) ، يُعد ثالث ثلاثة ممن نسبهم مؤسسي « مدرسة  
القيروان الطبية » (والأولان هما : إسحق بن عمران البغدادي ، ت حوالي ٢٧٩ هـ ، وإسحق بن  
سليمان الإسرائيلي المصري ، ت بعد ٣٤١ هـ) .

وقد لازم ابن الجزار ، في عيادته بالقيروان ، مدة ، الطبيب الأندلسي عمر بن بريق - المار ذكره  
أعلاه - فلما انصرف إلى بلده حمل معه نسخة من كتاب أستاذه : « زاد المسافر وقوت الحاضر » ،  
ونرجح أنه عاد أيضاً بكتب أخرى له ، منها « الاعتماد في الأدوية المفردة » ، هذا الذي اتفق  
وصوله إلى قرطبة حين اشتغال ابن الهيثم بمراجعة « حشائش » ديسقوريدس ؛ فتعقبه طبيبنا  
النباتي ، وصنف كتاباً في ما وجده فيه من أخطاء ، في المفردات ، كانت فائتية بين الأطباء !

حول ابن الجزار ، انظر : فاضل السباعي : « الطبيب ابن الجزار القيرواني » (في حلقتين) ، مجلة  
« الثقافة » ، العددان المتتابعان : شعبان ورمضان ١٤٠٧ (مارس وأبريل ١٩٨٧) .

وفي مناقشة بحثي هذا ، عن ابن الهيثم ، في المؤتمر الثالث عشر لتاريخ العلوم عند العرب ، أعلن  
صديقي الباحث الدكتور محمد زهير البابا ، عضو مجمع اللغة العربية ، أنه ينبغي ألا نولي اهتماماً  
كبيراً لمسألة تعقب ابن الهيثم لأخطاء ابن الجزار في كتابه « الاعتماد ... » ، لأن الطبيب القيرواني  
كان عالماً كبيراً كثير التآليف ، على حين أن ابن الهيثم لم يؤلف إلا القليل وقد أهمله التاريخ .

قلت : إن ابن الجزار القيرواني كان عالماً قد تعددت مواهبه ، فهو أُلّف في الطب والدواء (الصيدلة)  
وفي الأدب والتاريخ ؛ وأما معاصره ابن الهيثم القرطبي فقد عانى دراسة كتاب ديسقوريدس في  
نصه الأصلي ، وعرف ما جهل غيره من الأطباء - وذلك ما لم يُنح للطبيب ابن الجزار - ووقف  
علمه كله على الأدوية ، فهو - في مصطلح اليوم - « متخصص » في مضماره ، فيصح سائغاً أن  
يتعقب المتخصص الأخطاء عند من لم يدرك مثل تخصصه ، هذا فضلاً عن أن كتاباً لابن الهيثم  
في تعقب أخطاء الطبيب القيرواني مذكور في المصادر التاريخية وإن لم يصل إلينا نصه ، فهو  
حقيقة واقعة .

ثانياً : نموذج من علمه

٥ - « بخور مريم » ، خاص بابن الهيثم :

قلنا إن ابن البيطار قد نقل ، في كتابه « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » (١) ، عن طبيبنا ابن الهيثم ، أو ذكر اسمه ، مرات ثمانية ، هي ، علي الترتيب الهجائي الذي اتبعه في موسوعته : بخور مريم ، جوز الرقع ، جوز القيء ، حردون ، دند ، عقرب ، كباية ، كمون ... معظمها مفردات نباتية ، واثنان حيوانيتان ، وليس بينها مفردة معدنية (٢) .

وقد جرى ابن البيطار عل أن يُدرج ، تحت كل مفردة ، ما توافر حتى عصره من المعلومات عنها ، ناسباً كل نص إلى صاحبه بأمانه ملحوظة . وقد تعز المعلومات فما يملك منها في مفردة ما ، سوى نص وحيد ... من ذلك ما سماه « بخور مريم آخر » ، وكان النص الوحيد المدرج تحته لابن الهيثم !

وصفة « بخور مريم » الأول ، المعروف لدى القدماء ، كما حلاه ديسقوريدس أن في ورقه آثاراً « لونها إلى البياض » ؛ وله « ساقٌ طولها أربع أصابع ، عليها زهرٌ شبيه بالورد الأحمر وفي لونه فرفرية ؛ وله أصلٌ أسود ، شبيه في شكله بالشلجم ، إلى العرض مائل ... » (٣) .

١ - طبعة مصورة بالأوفست ( دار المدينة ؟ ، د . ت ) ، عن طبعة بولاق ١٢٩١ هـ ( ١٨٧٥ م ) .  
٢ - تتكون الأدوية المفردة Simple ( غير المركبة ) ، من أصناف ثلاثة : نباتية ، وحيوانية ، ومعدنية ؛ ويسمى النباتي منها : « العقاقير » ، التي تكون ورق النبات ، أو بزوره ، أو أصله ( جذره ) ، أو قضبانه ، أو زهره ، أو ثماره ، وقد تكون جملة النبات كما هو .  
« القانون في الطب » ، دار صادر بيروت ( د . ت ) ( طبعة مصورة عن طبعة بولاق ١٢٩٤ هـ ) : ٢٣٨ .

٣ - « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » ١ : ٨٤ .  
واللون الفرفيري هو اللون الأحمر القاني جداً .  
والشلجم ( أو السلجم ) من الفارسية : اللفت .  
ومثل هذا الوصف ، مع اختلاف يسير ، أورده الطبيب القوصوني المصري ( كان حياً ١٠٤٤ هـ ) :  
« وبخور مريم نبات ورقه كورق اللباب الكبير ، وفيه آثارٌ بيض ؛ وساقه صغير ، وعليه زهر كالورد الأحمر ؛ وأصله أحمر » ، « قاموس الأطباء وناموس الألبا » ( جزءان ) من مصورات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٧٩ و ٨٠ ، ١ : ١٥٣ .

ثم يعدد العشاب الإغريقي ديسقوريدس منافعه ، ومنها : أنه يُسهل البطن ، ويُدبر الطمث ، وينفع من سموم الهوام ومن ضعف البصر ؛ وأصله يُنقى البشرة ، ويذهب بالبثر ، ويوافق النقرس ... ولا يفوته أن يقول : « وزعم بعض الناس أنه إذا تحطته امرأة حامل أسقطت ؛ وإذا شُد في الرقبة ، أو في العضد ، منع الحبل » (١) !

وقد رأى ابن البيطار في تحلية ابن الهيثم لهذا النبات ( أي في وصفه له ) ، وجهاً مخالفاً لتحلية ديسقوريدس ، فأدرج بعد هذه المفردة ، ما أطلق عليه « بخور مريم آخر » ، مُتبعاً إياه نص طبيينا الأندلسي :

« ابن الهيثم : هو نبات ، له ورقٌ دقيقٌ في صفة ورق الثيل ، وعُسلوجٌ في ارتفاع الذراع رقيقٌ ؛ في أصل كل ورقة عُسلجٌ صغير ، وفي طرفه رؤوسٌ صُفْر كأنها شعبةٌ من إكليل الثبث ؛ وبزره كبزره » (٢) .

ثم لم يغفل تلك « الخاصة » العجيبة ، التي أشار إليها ديسقوريدس في بخور مريم ، الأول ، على سبيل الزعم ، فأوردها هو دون تحفظ : « وأصل هذا النبات إذا عُلِق على المرأة منع الحبل » (٣) !

١ - « الجامع ... » ١ : ٨٤ .

وأصل النبات (أو الشجرة) : أسفلها (جذورها) .

والبثر والبثر هو الخراج الصغير .

والنقرس Goutte ، حسب تعريف القروصوني : « وجعٌ وورم يحدث في مفاصل الكعبين وأصابع الرجلين ، ولا سيما مفصل الإبهام » ، « قاموس الأطباء ... » ١ : ٢٢٢ .

وبعزو ابن زهر بعض أسباب النقرس « إلى من التزم المشي على غير اعتياد » ، ويقول : « وقلما رأيت من عيَّشه من المشي إلا منقرسا ! » ، « التيسير في مداواة والتدبير » ، تحقيق الدكتور ميشيل الخوري ، من منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ( اليكسو ) تونس ، مطبعة دار الفكر بدمشق ١٩٨٢ ، ص ٣٧٦ .

٢ - « الجامع ... » ١ : ٨٥ .

والثيل ، والثيل ، هو النجم ، والتجيل ، والنجير ، « الجامع .. » ١ : ١٥٣ ... نباتٌ عارضٌ مُضِرٌّ ، من الفصيلة النجيلية .

والعسلوج ، والعسلج : ما لان وأخضر من قضبان الشجر .

والثبث : بقلة سنوية من التوابل .

٣ - « الجامع ... » ١ : ٨٥ .

وعرف مصطفى الشهابي ، من المعاصرين ، نوع بخور مريم الأول :  
 بخور مريم ، شجرة مريم ، كف مريم ، عرطنيثا Cyclamen : هو السكوكع  
 ودويك الجبل ، في بعض أنحاء الشام . جنس نباتات عشبية معمرة من فصيلة  
 الربيعيات ، لها زهر جميل ، تنبت برية في جبال الشام الغربية ، وتزهر في أواخر  
 الشتاء مع المكحلة ، وتزرع لزهرها (١) .

## ٦ - نوع من « الجوز » يحمل على النهوع :

وإذا كان ابن البيطار قد نقل تحلية ابن الهيثم الوحيدة لنبته بخور مريم ، فإنه  
 ينقل ، في مفردة « جوز القيء » ، تحلية قال بها أندلسي آخر هو الشريف الإدريسي  
 ( ت ٥٦٠ هـ ) ، المتأخر حقبة عن عصر طيبينا أبي إسحق :

« الشريف : ( جوز القيء ) هو ثمرة شجر ، يكون نباته في سروات اليمن  
 فقط؛ وقدره على قدر البندق ، بل أعظم منه بقليل ؛ في جوفة شبيهة حجب ، بين  
 الحجاب والحجاب حبة شبيهة بحب الصنوبر الكبير ، وفيها بعض التّن » (٢) .

ولقد حلّى أبو جعفر الغافقي ( ت بعد ٥٦٠ هـ ) هذا الجوز ، فقال :  
 جوز القيء : « ويسمى جوز الرقع يؤتى به من اليمن . وقيل إنه ضرب من  
 الحمّاض . وهو أكبر من البندق قليلاً ، لونه بين الصفرة والبياض فيه تحزير » (٣) .

١ - « معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية » ( إنكليزي - عربي ) ، إعداد أحمد شفيق  
 الخطيب ، مكتبة لبنان بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٢ .

٢ - « الجامع ... » ١ : ١٧٦ .

٣ - « منتخب جامع المفردات للغافقي » حقق نصه العربي وترجمه إلى الإنكليزية : ماكس مايرهوف  
 وجورج صبحي ( نقلاً عن « المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية » ، جزءان ،  
 تأليف إبراهيم بن مراد ، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٨٥ ، ٢ : ٣٣٠ ) .  
 والحمّاض : نباتات عشبية من فصيلة الحمّاضيات ، وهي أنواع تنبت برية ، ويزرع بعضها . ويقال  
 لما في جوف الأترج ( الكباد ، بعامية الشام ) : حمّاض .  
 ويلاحظ أن الغافقي قد جعل جوز القيء وجوز الرقع واحداً !

وبعد خمسمئة سنة أخرى ، يُعرّف به أبو القاسم الغساني الشهير بالوزير ( ت  
١٠١٩ هـ ) ، فيقول :

« جوز القيء : هو ثمرة شجرة تنبت بالسودان ؛ لونه أبيض إلى الصفرة ، أعظم  
من البندق ، ويسمى بجوز قاتل - يعني : لمن أكله بقوة - ويسمى بجوز الدفع ، لدفعه  
بالقيء والإسهال »<sup>(١)</sup> .

وأما نصّ عبدالرحمن بن الهيثم - الذي نحسب أن ابن البيطار قد استمده من  
كتاب طبيينا : « التمام والكمال في الأدوية المسهلة والمقيئة » - فكان بياناً بالكيفية التي  
يكون بها استعمال هذا العقار ... يقول :

« ابن الهيثم : إذا شرب ( من جوز القيء ) وزن درهم كميلاً بوزن مثقال من  
الأنيسون المسحوق ، أو بزر الرازيانج ، وعُجن بكفاية من العسل ، وشُرب منه بماء  
حار ، هيّج القيء ، وقياً فضولاً مرّيةً وبلغميةً . ويُسهل أيضاً من أسفل ، على قدر  
القوة والفصل والطبع »<sup>(٢)</sup> .

وفي المصادر العلمية الحديثة : جوز القيء *Strychnos nux-vomica* : شجر  
طبي عظام ، من فصيلة اللوغانيات ، يُستخرج منه الإستركنين .

وقد عددت مصادر تراثنا الطبي أنواعاً من الجوز ، وبينت فوائدها تفصيلاً ، منها:  
الجوز ( مطلقاً ، أي جوز الأكل ) ، وجوز بوا ( جوز الطيب ) ، وجوز مائل ، وجوز

---

١ - « حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار » ، تحقيق محمد العربي الخطابي ، دار الغرب الإسلامي  
بيروت ١٩٨٥ ، ص ٧٨ . والغساني هو من سلالة الأندلسيين الذين نزحوا عن الوطن الأم إلى  
العدوة المغربية .

والمقصود بالسودان : ما يعرف اليوم بغربي إفريقية (قبل أن يختص القطر السوداني بهذه التسمية).  
وتلاحظ تسمية الجوز بجوز الدفع على الجاز !

٢ - « الجامع ... » ١ : ١٧٦ .

والأنيسون ( من اليونانية *Pimpinella anisum* ) ، وهو اليُسُون بعامة الشام : نبت ، يزره من  
التوابل المشهورة ؛ والرازيانج ( من الفارسية ) : جنس بقول ... وهما من الفصيلة الخيمية .

الخمس ، وجوز عَبَّهْر ، وجوز القطا ، وجوز الشَّرْك ، وجوز الهند ، وجوز المرج ، وجوز الريح ( أو الزنج ) ، وجوز الأنهار وجوز الكوثل ، وجوز أرمانبوس ، وجوز جُنْدُم ، وجوز أرقم ، وجوز السرو ، وجوز الطرفا ... فضلاً عن جوز القبيء وجوز الرقع .

وقد ذهب ابن الهيثم إلى أن جوز القبيء وجوز الرقع واحد ... وهذا مذهب ناقشه فيه ابن البيطار ( على ما نبين حالاً ) .

#### ٧ - حوار العلماء :

ومما يمكن أن نَعُدّه « حواراً » بين العلماء - ليس ساعة يجتمعون وجهاً لوجه في مجالس العلم المعهودة ، بل هو الحوار الذي يجري بينهم في « مجالس التاريخ » المعقودة أبداً ! - هذا النص الذي نقله ابن البيطار ( القرن السابع الهجري ) عن ابن الهيثم ( القرن الرابع ) ، في مفردة « جوز الرقع » : « وقال عبدالرحمن وحده : هو جوز القبيء »<sup>(١)</sup> ! ... فإن ابن البيطار يقول مُفنداً :

« وفي قوله نظرٌ ومطالبة ( ... فقد ) ذكر أبو حنيفة الدينوري ( ت حوالي ٢٨٢ هـ ) أن طعم الرقع طعمٌ حلوٌ يُغذى به ؛ وهذه صفةٌ بعيدةٌ من صفة جوز القبيء جداً »!

ثم نرى ابن البيطار يتلطف إذ يتلمس المُسوغات لمقولة ابن الهيثم :

« وعسى أن تكون هذه القوة تختلف في منابته ، فيكون منه ، لهذا ، السببُ المقييء وغيره ؛ أو يكون أبو حنيفة لم يقف على هذا من فعله ، أو وقف عليه ولم يذكره إذ لم يكن من عنايته »<sup>(٢)</sup> ! .

١ - والواقع ، أن عبدالرحمن بن الهيثم لم يكن وحده من قال بأن « الرقع » و « القبيء » واحد ، بل تبعه في ذلك الغافقي ( كما سلف بيانه أعلاه ) .

٢ - « الجامع ... » ١ : ١٧٦ .

وفي النبات المسمى « دند » ، يقول ابن البيطار : « هو الخِرْوَع الصيني » ،  
ويضيف مخطئاً :

« وغلط من قال إنه الماهودانه ، كما قال ابن جدجل وابن الهيثم ! وأكثر أطباء  
زماننا هذا يغلطون في ذلك ! وقد ذكر ( أطباء - وعدد ثلاثة من قدمائهم - ) الدند  
والماهودانه بصنفتين مختلفين »<sup>(١)</sup> .

وأما الماهودانه ( والصحيح : الماهوبدانه ) فإن « تأويله بالفارسية ( يقول ابن  
البيطار : هو ) القائم بنفسه ، أي أنه يقوم بذاته في الإسهال » . وهو - عند  
ديسقوريدس - « نبات يعده الناس من أصناف التتوع ... وهذا النبات - كما هو -  
مملوء لبناً ؛ وبزره - عند جالينوس - « فيه خاصية قوة الإسهال »<sup>(٢)</sup> .

٨ - تصنيف أنواع :

وغير ما سبق - من مفردات ابن الهيثم في « جامع .. » ابن البيطار - هناك  
« الكبابة » ( فارسية ، والاسم العلمي Piper cubeba ) . يعرفها إسحق بن عمران  
( من المدرسة القيروانية ) : هي « حب العروس ، ونعتها مثل نعت الفلفل ، ولها أذنان ،  
وأحرافها ولونها أصهب »<sup>(٣)</sup> .

١ - « الجامع ... » ٢ : ٩٧ .

وقد وردت « التخطئة » - التي شملت ابن الهيثم ومعاصره ابن جدجل معا - ابتداءً ، عند الغافقي  
( القرن السادس الهجري ) ، « المصطلح الأعجمي ... » ٢ : ٣٨٣ و ٨٤ ؛ وعنه نقلها ابن البيطار  
دون أن ينسبها إليه !

والدند ، في تعريف القوصوني : « هو المعروف بحب الملوك ، وهو ثلاثة أصناف : صيني ،  
وشجري ، وهندي ؛ فالصيني كبير يشبه القستق ؛ والشجري منقط بسواد ؛ والهندي يتوسط في  
القدر بينهما . والحبة تنقسم إلى نصفين ، وفيها لسان ... » ، « قاموس الأطباء .. » ١ : ١٢٩ .

٢ - « الجامع ... » ٤ : ١٢٢ .

ويذكر الشهابي : التتوع ( من السريانية ) هو الفربيون Euphorbia ، يطلق على كل نبات له لبن  
دار . جنس نبات من فصيلة الفريونات ، فيه عدة أنواع ، لا كبير شأن لها في الزراعة . منها :  
الماهودانه E. lathyris ، والحلباب ، والشيرم ، واللاعية ...

٣ - « الجامع ... » ٤ : ٤٨ .

ويأتي ابن الهيثم بإضافة ما :

الكيابة « صنفان : كبيرة وصغيرة . والكبيرة هي حب العروس ، والصغيرة هي الفلنجة » (١) .

وفي منافع الكيابة ، من كل صنف وتسمية ، يقول جالينوس إنها مدرة للبول ، ومنقية للكليتين من الحصى . وإذا أمسكت في الفم - كما يقول الشريف الإدريسي - حسنت اللثات وعطرت الأنفاس (٢) . وعند القوصوني - الذي يراها حبا يجلب من الهند - هي من البخورات اليابسة التي تنفع مع غيرها من « السعال الكثير الرطوبية » (٣) .  
و « الكُمون » (والاسم العلمي Cuminum ) ، عند ابن سينا ( ت ٤٢٨ هـ ) ، أصناف أربعة : كرمانى ، وفارسي ، وشامي ، ونبطي (٤) .

وفي تعريف الكمون ، عموماً ، يقول الغساني الوزير :

« من جنس الهدبات ومن ذوي الجُسم ، ويقع على نباتات كثيرة ، ولكن الأخص به هذا النوع الذي هو من التوابل ؛ له ورق لطيف رقيق كورق الثبث ؛ وزهره دقيق أبيض كزهر الكزبرة وهو معروف عند الخاصة والعامة » (٥) !

١ - « الجامع .. » ٤ : ٤٨ .

وتدخل الفلنجة ، عند إسحق بن عمران ، « في الطيب .. وهي ، في صفتها ، مثل حب الخردل وأكبر ، لها عيدان صغار مثل العُقد » ، « الجامع .. » ٣ : ١٦٥ .

٢ - « الجامع .. » ٤ : ٤٩ .

٣ - « قاموس الأطباء .. » ١ : ٥٧ و ١٥٣ .

٤ - « الجامع .. » ٤ : ٨١ .

٥ - « حديقة الأزهار .. » ١٤١ : ١٤١ .

والجسم ، مفرداً جمعة ، وهي الشعر الكثير !

ويتابع الغساني معدداً منافعه وخواصه : « نافع من ذوات السموم والهوام ، مدر للبول والطمث ، يطرد الرياح ، ويحلل الصلابات . وإذا شرب بالماء نفع من الأمغاص والنفخ ، وإذا شرب بالخلل نفع من الفواق . مدمل للجراحات ، قاطع للرعاف إذا أدخلت منه فتيلة في الأنف . وعصارتة تجلو البصر ، وتزيل الدمعة » .

ولكن ابن البيطار ينقل عن إسحق بن عمران ، أن هناك « كموناً أبيض »<sup>(١)</sup> ؛  
كما ينقل عن طيبينا عبدالرحمن بن الهيثم :  
أن هناك الكمون الأسود ، و « هو البري ، الشبيه بالشونيز »<sup>(٢)</sup> .

#### ٩ - خواص الحِرْدُون والعقرب ، العجيبة !

قلنا : إن الأطباء القدامى قد أسرفوا ، أحياناً ، في الحديث عن خواص بعض العقاقير والمفردات الطبية ، حتى بلغوا حداً يمجّه الذوق السليم . إلا أن ميل الإنسان الفطري إلى سماع الأعاجيب والتأثر بها ، كان يُزين لبعضهم - مع ما متّعوا به من الفهم والعلم - الكتابة في خواص تُثير الخواطر ، وتبعث الدهشة ، وتحمل على التعلق بآمال لا تعدو أن تكون أوهاماً !

وقد كان لا بد لعبدالرحمن بن الهيثم من أن ينساق مع منطق العصر ، فكانت منه مفردات - ربما هي ما ضمه كتابه المسمى « الاكتفاء بالدواء من خواص الأشياء » - قد اجترح بعضها من خياله ، مثلما اقتبس من الأطباء السابقين عليه ، عربياً وأغارقة ، فزاد عليهم في ما اقتبس بحكم الانسياق<sup>(٣)</sup> !

١ - « الجامع .. » ٤ : ٨٢ .

والكمون الأبيض أو حبة الحلاوة أو الحبة الحلوة ( في المغرب ) : هي الأنيسون ( النيسون ) .

٢ ... « الجامع .. » ٤ : ٨٢ . وقد ورد الاسم محرفاً : عبدالله بن الهيثم !

ويقول ابن البيطار ، في مفردة « كمون أسود » : « هو الكمون البري على الحقيقة ، وقد يقال أيضاً على الحبة السوداء بالعربية وهو الشونيز » ، « الجامع .. » ٤ : ٨٣ .

والشونيز ( فارسية ) ، أو الحبة السوداء *Nigella* : جنس نباتات عشبية حولية ، فيه أنواع تزرع لحبها أو لزهرها ، وأنوع تنبت برية في الحقول . ومن الشونيز المزروع : الحبة السوداء *N. sativa* ، نوع يزرع للحصول على بزرته التي تسمى في مصر والشام ، بحبة البركة .

٣ - من ذلك ما بينا من قول ديسقوريدس عن نبات « بخور مريم » : وزعم بعض الناس أنه إذ تخطته امرأة حامل أسقطت ! وإذا شد في الرقبة ، أو في العضد ، منع الحمل ! . فكان أن « تخطي » طيبينا ابن الهيثم « الزعم » إلى ما هو في حكم اليقين ، عندما قال : « وأصل هذا النبات إذا علّق على المرأة منع الحمل » ! ، « الجامع .. » ١ : ٨٤ و ٨٥ .

فمن دُوِيَّة « الحِرْدُون » - في موسوعة ابن البيطار - يقول « مهرانيس ، في خواصه : إن عُلُق قلب الحردون على صاحب حُمى الرَّبْع في خرقه سوداء ، أبرأها وأزالها »<sup>(١)</sup> ! وأما ديسقوريدس فينقلون عنه : « خَرء ( الحردون ... ) يصلح لتحسين اللون وصقال الوجه والبشرة ؛ وأجود ما يكون من خَرءه الشديد البياض .. وإذا خلط برطوبة انماع سريعاً ؛ وإذا فُرك فاحت منه رائحة إلى الحموضة ما هي ، فيها شيءٌ شبيه برائحة الجميز ! وقد يغشه قوم بخرء الزراير التي تُعلف الأرز »<sup>(٢)</sup> !

فجاء طبيينا أبو إسحق بن الهيثم ، وزعم - وأمامه هذه « المقدمات » ! - في كتابه « الاكتفاء .. » :

١ - « الجامع .. » ١ : ١٨ .

وحُمى الربيع هي الحمى التي « تأخذ يوماً ، وتدع يومين ، ثم تجيء في اليوم الرابع » ! ، حسب تعريف القوصوني ، ١ : ٢٥٥ .

ولا يرى الطبيب الأندلسي عبد الملك بن زهر ( المعروف بـ « الابن » ) هذه الحمى خبيثة ، « وإنما شرها كله في عُسْر نُضجها » ! ، « التيسير في المداواة والتدبير » : ٣٩٦ .

وعن الحميات في نظر ابن زهر - وهي : حمى يوم ، نجب ، ورد ، دموية ، ربّع - انظر : فاضل السباعي : « الطبيب الأندلسي عبد الملك بن الفقيه محمد بن زهر » من خلال كتاب « التيسير .. » ( وهو جدّ صاحب التيسير ) ! ، « أبحاث المؤتمر السنوي العاشر لتاريخ العلوم عند العرب » . ( اللاذقية ، نيسان ١٩٨٦ ) ، معهد التراث العلمي العربي بجامعة حلب ١٩٨٩ ، ص ص ١٩٩ - ٢٢٥ .

وصقال الوجه : صَقَلَه وجلاؤه !

والجميز : شجر من الفصيلة الخيزية ( مثل شجر التين ) ، يؤكل ثمره ، يكثر في مصر ، ويسمى أيضاً - عند القوصوني المصري - بـ « التين الذكر » ! ١ : ٢٠٤ .

٢ - « الجامع .. » ١ : ١٨ .

وأما جالينوس فيقول : « قال قومٌ : دمه يُجدّ البصر ! فتركتُ تجربته لِقدره ، فإنني قدرت على غيره من الأدوية التي امتحنتها لفعل ذلك ... » !

أن « جلد ( الحِرْدُون ) ، إذا أحرق وطُلِّي به إنسانٌ ، لم يخف ما يناله من الضرب والقطع »<sup>(١)</sup> !

وأما تعريف الحِرْدُون ، فهو :

عند الجاحظ : « دويبة تشبه الحرباء ، تكون بناحية مصر وما والاها ؛ وهي دويبة مليحة ، موشاةً بألوان ونقط »<sup>(٢)</sup> .

وفي معجم أمين المعلوف : « عَضْرُفُوط ، أم حُبِين ، حُبِينَة ، حِرْدُون Agama : جنس من العظاء أعظم من العظاءة المعروفة في مصر بالسحلية وأضخم . يُعرف في مصر وسيناء بقاضي الجبل ، وفي جزيرة العرب بالحينة . وهو أنواع كثيرة ، منها نوع يُعرف في الشام بالحردون A. Stellio »<sup>(٣)</sup> .

وعند الشهابي : حِرْدُون Agama Stellio ، جمع حِرَادِين ، وتأتي بدال مهملة : دويبة - غير الورل وغير الضب - قلما يزيد قدرها على ٣٠ سنتيمتراً . وهي كثيرة في الشام »<sup>(٤)</sup> .

وفي « العقرب » ، تلك الدويبة الضارة<sup>(٥)</sup> ، يقول ديسقوريدس : إذا أخذ نيباً، ودُق ، وسحق ووضع على لسعة العقرب ، أبرأها ! وقد يُسوى ويؤكل ، فيفعل ذلك أيضاً ! ويسترسل ابن سينا : « وأما رماد العقارب ، فيُدبَّر بأن تطين فارورة ثخينة بطين الحكمة ، ثم يجعل فيها العقارب في تنور حارة ، ليلة أو أقل ، من غير مبالغة في الاحتراق ، ويرفع من الغد ! والزجاج خيرٌ من الخرف الناشف الآخذ للقوة » ! .

١ - « الجامع .. ١ : ١٨ .

أذكر أنني عرفت ، وأنا على مقاعد الدرس بحلب ، تلامذة كانوا من المقصرين في دراستهم ، يزعمون لزملائهم أنهم قد تصيدوا ، في ظاهر المدينة ، حردوناً ، فذبحوه ودهنوا أكفهم بدمه ، فيمتنع إحساسهم بالوجع عندما يتلقون من المعلم الضرب بالعصا على أيديهم !

٢ - « كتاب الحيوان ، تحقيق عبدالسلام هارون ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ( د . ت ) ، ٦ : ٥٨ .

٣ - « معجم الحيوان » ، طبعة مصورة ، دار الرائد العربي ببيروت ( د . ت ) ص ٦ و ٧ .

٤ - معجم الشهابي : ١٢ .

٥ - كدتُ أعرف العقرب فأقول ، على طريقة القدماء : « وهي معروفة » ! فوجدت صاحب « معجم

الحيوان » قد سبقني إلى مثل ذلك ، يقول : « عقرب Scorpio ، مؤنثة ، وهي أنواع كثيرة » ! ص ٢٢٠ .

ويزيد الشريف الإدريسي : « إذا سُحِقَ العقرب محرقاً ، وخلط بمثل نصف وزنه خراًء فأر ، واكتحل به ، أحد البصر ، ونفع من جرب العين (١) ! ... »  
ويزعم طيبينا أبو إسحق :

« إن أُخِذَت عقربٌ واحدة ، وقد بقي في الشهر ثلاثة أيام أو أربعة ، وجُعِلَ في إناء وصب عليها زيت ، وسد رأس الإناء ، وترك حتى يأخذ الزيت قوتها ، ثم يُدهن به مَنْ به وجع الظهر والفخذين ، فإنه يُبرئه . وقيل : إن طُلي من هذا الدهن على البواسير الظاهرة ، جففها وأسقطها . وإن أخذت عقربٌ ميتة وجُعِلت في خرقة وعلقت على المرأة التي تُسقط أولادها ، لم يقسط الجنين وحفظه الله عليها » (٢) !  
فتلغخي خاصية العقرب ، ما سبق بيانه من خاصية الحرذون ، في إسقاط الجنين !

١ - « الجامع .. » ٣ : ١٢٨ .

و « طين الحكمة » من الأطيان المركبة التي كان للقدماء اعتناءً عظيم بها ، كما يقول الطبيب الضريير داود الأنطاكي ( ت ١٠٠٨ هـ ) ، وكان « يُحتاج إليه ، في الطّب ، لتوثيق آلات التقطير ، والطبخ به ( ... ) ، وصنعتة : طينٌ خالص جزء ، فحمٌ مسحوق ، شعر مفضوص ، ملح مكّس ، حطمي ، خبث الحديد ، كلس ، قشر البيض ، من كل نصف جزء ، يُنخل ، ويُعجن بالألعة ، أو الخلل ، أو اللبن ، عجنًا مُحكمًا ؛ وكلما تخمرت كانت غاية فيما يراد منها ! .. » ، « تذكرة أولي الألباب .. » ، المكتبة الثقافية ببيروت ( د . ت ) ، ١ : ٢٣٤ .

و « جرب العين » هو ، حسب وصف ابن زهر الأندلسي : ما يظهر ، في باطن الجفن ، مسن « خشونة شبيهة بقشور التين » ، « التيسير .. » : ٤٩ . ويتعرف الباحث الدكتور محمد ظافر الوفايي الاسم العلمي المعاصر لهذا المرض Trachoma ، « المهذب في الكحل المجرب » ، لابن النفيس ، تحقيق الدكتور الوفايي والدكتور محمد رؤاس قلعه جي ، من منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ( إيسيسكو ) ، ( الرباط ) ١٩٨٨ ، ص ٢٧٨ .

ولا يفوت مصنف « الجامع .. » ، وهو يستوفي هذه الخواص ، العجبية ، أن يدللي بدلوه فيها ، يقول : « لي : إذا قُليت عقرب في زيت حتى يحترق ، وطُلي بذلك الزيت موضع داء الثعلب ، أنبت فيه الشعر ، مجرب » ! .

٢ - « الجامع .. » ٣ : ١٢٨ .

وبعد .

بهذه المعلومات الضئيلة عن ابن الهيثم ، ويسير من علمه الذي توافر لنا اليوم ، اجتهدنا أن نرسم ملامح لهذا العالم الجليل ، الذي كان واحداً في تلك الطليعة التي أخذت على عاتقها ، في أندلس القرن الرابع الهجري ( العاشر الميلادي ) ، أن تراجع كتاب ديسقوريدس بلغته ، الإغريقية ؛ بل كان العالم الأقدر ، بين أنداده السبعة ، على التأليف والتصنيف ... وبعده توالى وضع الكتب والموسوعات في المفردات الطبية !  
وأسمح لنفسي بأن أزعم - كرة أخرى - أنه كان ، حتى اليوم ، إذا ذكر اسم ابن الهيثم ، تداعى إلى الخاطر شخص عالم آخر ، من المشرق ، هو : محمد بن الحسن بن الهيثم !

ولكنني أحسب أن المهتمين بالتراث العلمي العربي ، سوف يميزون ، بعد اليوم ، ابن الهيثم الأندلسي ، الرائد في الطب النباتي ، من كنيه المشرقي عالم البصريات هذا الذي كان - بالمصادفة ! - معاصراً لطبيبتنا ، مع سبق الأندلسي له في الولادة بنحو خمسين سنة (١) .

---

١ - أبو علي ، محمد بن الحسن بن الهيثم ، ولد في سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) ، من أهل البصرة ، انتقل إلى الديار المصرية زمن الفاطميين ، وأقام بها إلى وفاته في نحو ٤٣٠ هـ .  
يقول في حقه ابن أبي أصيبعة ، الذي أفرد له ، في كتابه ، ترجمة ضافية :  
« ... لم يمثله أحد ، من أهل زمانه ، في العلم الرياضي ، وكان دائم الاشتغال ، كثير التصنيف ... وخبيراً بأصول صناعة الطب ، إلا أنه لم يباشر أعمالها ، ولم تكن له درية بالداواة ... » : ٥٥٠ .

## مراجع البحث

أولاً : المصادر (مسلسلة حسب أزمان مؤلفيها) :

- ١ - الجاحظ - أبو عثمان ، عمرو بن بحر ( توفي سنة ٢٥٥ هـ ) : « كتاب الحيوان » ( سبعة مجلدات ) ، تحقيق عبدالسلام هارون ، الطبعة الثالثة ، المجمع العلمي العربي الإسلامي ودار إحياء التراث العربي ببيروت ( د . ت ) مصورة عن الطبعة الثالثة ١٩٦٩ ) ( المجلد السادس ) .
- ٢ - ابن جُلجل - أبو أيوب ، سليمان بن حسان ( ت بعد ٣٩٩ هـ ) : « طبقات الأطباء والحكماء » تحقيق فؤاد سيد ، مؤسسة الرسالة ببيروت ١٩٨٥ ( مصورة عن طبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٥٥ ) ، مزيدة كتاب « تاريخ الأطباء والفلاسفة » لإسحق بن حنين ( ت ٢٩٨ هـ ) .
- ٣ - ابن سينا - الشيخ الرئيس أبو علي ، الحسين بن علي ( ت ٤٢٨ هـ ) : « القانون في الطب » ( ثلاثة أجزاء ) ، دار صادر ببيروت ( دون تاريخ ) ( طبعة مصورة عن طبعة بولاق ، القاهرة ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٧ م ) ( الجزء الأول ) .
- ٤ - ابن حزم - أبو محمد ، علي بن أحمد ( ت ٤٥٦ هـ ) : « رسائل ابن حزم الأندلسي » ( صدر منها أربعة أجزاء ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ببيروت ١٩٨٠ - ٨٣ ( الجزء الثالث ١٩٨١ ) .
- ٥ - القاضي صاعد الطليطلي - أبو القاسم ، صاعد بن أحمد بن صاعد ( ت ٤٦٢ هـ ) : « طبقات الأمم » ، تحقيق حياة العيد بوعلوان ، دار الطليعة ببيروت ١٩٨٥ .
- ٦ - الحميدي - أبو عبدالله ، محمد بن فتوح الأزدي ( ت ٤٨٨ هـ ) : « جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس » ، الدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٦٦ .

- ٧ - ابن زُهر - أبو مروان عبدالمملك بن زُهر الأندلسي ( ت ٥٥٧ هـ ) : « كتاب التيسير في المداواة والتدبير » ، تحقيق الدكتور ميشيل الخوري ، منشورات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ( اليكسو ) بتونس ، مطبعة دار الفكر بدمشق ، ١٩٨٣ .
- ٨ - ابن بَشْكُوَال - أبو القاسم ، خلف بن عبدالمملك ( ت ٥٧٨ هـ ) : « كتاب الصلة » ( قسمان ) ، الدار المصرية للتأليف والترجمة بالقاهرة ١٩٦٦ .
- ٩ - ابن البيطار، ضياء الدين أبو محمد، عبدالله بن أحمد المالمقي ( ت ٦٤٦ هـ ) : « الجامع لمفردات الأدوية والأغذية » ( أربعة أجزاء في مجلدين ) ، دار المدينة ( د . ت ) ( مصورة عن طبعة بولاق ، القاهرة ١٢٩١ هـ / ١٨٧٥ م ) .
- ١٠ - ابن الأَبَّار - محمد بن عبدالله القضاعي ( ت ٦٥٨ هـ ) : « التكملة لكتاب الصلة » ( مجلدان ) ، مجريط ١٨٨٦ و ٨٧ ( المجلد الثاني ) .
- ١١ - ابن الأَبَّار ( أعلاه ) : « المعجم في أصحاب القاضي .. الصدفي » ، دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٧ .
- ١٢ - ابن أبي أصيبعة - موفق الدين أبي العباس ، أحمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي ( ت ٦٦٨ هـ ) : « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ، تحقيق الدكتور نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ببيروت ( د . ت ) .
- ١٣ - ابن النفيس - علي بن أبي الحزم القرشي ( ت ٦٨٧ هـ ) : « المهذب في الكحل المحرب » ، تحقيق الدكتور محمد ظافر الوفائي والدكتور محمد رواس قلعه جي ، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ( إيسيسكو ) ( الرباط ) ١٩٨٨ .
- ١٤ - ابن عبدالمملك الأنصاري المراكشي - أبو عبدالله ، محمد بن محمد بن عبدالمملك ( ت ٧٠٣ هـ ) : « الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة » ( ثمانية أسفار ، المطبوع منها خمسة متفرقة ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس

- والدكتور محمد بن شريفة ، دار الثقافة ببيروت وأكاديمية المملكة المغربية بالرباط ، ١٩٦٤ - ٨٤ ( السفر الرابع ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار الثقافة ببيروت ١٩٦٤ ) .
- ١٥ - داود الأنطاكي - داود بن عمر ( ت ١٠٠٨ هـ ) : « تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب » ( ثلاثة أجزاء ) ، المكتبة الثقافية ببيروت ( د . ت ) ( طبعة مصورة ) .
- ١٦ - الغساني الوزير - أبو القاسم بن محمد بن إبراهيم ( ت ١٠١٩ هـ ) : « حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار » ، تحقيق محمد العربي الخطابي ، دار الغرب الإسلامي ببيروت ١٩٨٥ .
- ١٧ - المقرئ التلمساني - أحمد بن محمد ( ت ١٠٤١ هـ ) : « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » ( سبعة مجلدات والثامن فهارس ) ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، دار صادر ببيروت ١٩٦٨ ، ( المجلد الثالث ) .
- ١٨ - القوصوني المصري - مدين بن عبدالرحمن ( ت بعد ١٠٤٤ هـ ) : « قاموس الأطباء وناموس الألبا » ( جزءان ) ، من مصورات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧٩ و ٨٠ .

#### ثانياً : المراجع

- ١٩ - « الدولة البيزنطية » : الدكتور السيد الباز العريني ، دار النهضة العربية ببيروت ١٩٨٢ .
- ٢٠ - « القاموس المحيط » : الفيروز آبادي ( ت ٨١٧ هـ ) ، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة ببيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٦ .
- ٢١ - « المصطلح الأعجمي في كتب الطب والصيدلة العربية » ( مجلدان ) : إبراهيم بن مراد ، دار الغرب الإسلامي ببيروت ١٩٨٥ .
- ٢٢ - « معجم أسماء النبات » : الدكتور أحمد عيسى ( ت ١٩٤٦ ) ، دار الرائد العربي ببيروت ١٩٨١ ( مصورة عن طبعة القاهرة ١٩٣٠ ) .

٢٣ - « معجم الحيوان » : أمين المعلوف ، دار الرائد العربي بيروت ( د . ت )  
( طبعة مصورة ) .

٢٤ - « معجم الشهابي في مصطلحات العلوم الزراعية » ( إنكليزي - عربي ) : إعداد  
أحمد شفيق الخطيب ، مكتبة لبنان بيروت الطبعة الثانية ١٩٨٢ ( نواة المادة  
العربية في المعجم من وضع وتحقيق الأمير مصطفى الشهابي ، ت ١٩٦٨ ) .

٢٥ - - Historie de la Médecine Arabe ( 2 T. ) : Lucien LECLERC -  
١٩٨٠ الرباط Réédité Rabat ١٨٧٦، Paris ( ١٨١٦ - ١٨٩٣ )